المحاضرة رقم 01: جذور الفكر الاجتماعي في العصور القديمة والوسطى

الفكر الاجتماعي بالمعنى الدقيق هو نتيجة التفكير المشترك لأعضاء المجتمع أو الجماعة أو البيئة، إن الفكر الاجتماعي هو فكر الأفراد عن المسائل الجماعية، وبهذا فإن الفكر الاجتماعي هو التفكير في مشاكل المجتمع من جانب شخص أو عدد من الأشخاص في الماضي أو الحاضر[1].

الفكر الاجتماعي نتاج لعقل الإنسان ويتأثر إلى حد بعيد بالمؤثرات التي تدخل في تكوين هذا العقل ولا ينفصل هذا الفكر عن ماضيه، لذلك نجد أن كثير من المفكرين المعاصرين يعرضون للفكر الاجتماعي باعتباره وحدة متماسكة الحلقات، تمتد من المجتمعات البدائية إلى المجتمعات المعاصرة[2]، استفاد الفكر الاجتماعي من طبيعة الظروف الاجتماعية ولا يمكننا فهم الفكر الاجتماعي دون فهم العصر الذي نشأ فيه.

يمكن الإشارة إلى خمسة اتجاهات عامة ميزت الفكر الإنساني عبر رحلته الطويلة وكل اتجاه يعبر تعبيرا صادقا عن المرحلة التاريخية التي وجد بها:

- يتميز الاتجاه الأول بغلبة النزعة الدينية على التفكير الاجتماعي، فقد كان تفشي الظواهر الاجتماعية والطبيعية يتم بإرجاعها لقدرة الآلهة أو الإله الواحد، وقد ساد هذا الاتجاه في المجتمعات البدائية[3].
- بغض النظر عن الحاجات الدينية فقد حاول الإنسان أن يفكر في علاقته بالعالم ككل الحي والغير الحي، وقد تفلسف وحاول رد هذا العالم المحسوس والغير المحسوس إلى عدد المفاهيم وحاول الوصول إلى أرض ثابتة لتفسير علاقته بالعالم[4]، وقد ساد هذا الإتجاه مرحلة التفكير الفلسفي ساعيا وراء المعاني النهائية[5].
- ساد في هذا الإتجاه تفكير الإنسان نحو نفسه مركزا على محاولة فهم وظائف التفكير والسلوك، وقد أدى هذا الاتجاه إلى معالجات كثيرة في مجالات علم النفس الفردي[6].
- سعى الإنسان في هذا الاتجاه إلى معرفة أسرار الأرض المادية ومنذ الثورة الصناعية في إنجلترا فإن العقول العلمية قد ركزت طاقة عظيمة نحو محاولات فهم واستثمار العناصر الفيزيقية، فقد حاول الإنسان أن يستفيد من الصخور وطبقاتها للحصول على ثروات من الذهب والبترول والغاز، وفيها تغلب الإنسان على الطبيعة وأصبح سيدا عليها ومؤثرا فيها[7].
- في العصور الحديثة سيطرت على الفكر الإنساني مشكلة توافق الإنسان مع أقرانه من بني الإنسان، فعبر ألاف السنين تركز هذا الفكر في علاقة الإنسان بخالقه، وكذلك علاقته بالعالم الطبيعي والاجتماعي، ورغم ذلك كله أهملت الجوانب الاجتماعية لحياة الإنسان، فالإنسان حتى العصور الحديثة ظل يعاني من عدد كبير من الأمراض الاجتماعية التي تحتاج إلى دراسة علمية دقيقة[8].

---

[1] الجوهري، ص 08.
[2] والي، ص 10
[3] والي ، 2005، ص 11.
[4] الجوهري، ص 10.
[5] والي، ص 11-12.
[6] والي، ص 12.
[7] - الجوهري، ص 12.
[8] والي ، ص 12.

1- الفكر الاجتماعي في ظل الحضارة اليونانية:

أ- **السوفسطائيون:** يعتبر السوفسطائيون من رواد الفكر الاجتماعي الجدلي في صورته البدائية ومن أوائل من اتجهوا اتجاها واقعيا نقديا في معالجة الموضوعات الاجتماعية وقد أحرقت مؤلفاتهم وكتبهم ولكن أفكارهم وصلتنا عن طريق خصومهم، اعتقد كاليكس أن الطبيعة هي القاعدة السليمة للحياة الإنسانية وإذا سرنا على هذه القاعدة كما ينبغي فأننا نجد أن السلوك الاجتماعي والأخلاقي يتضمنان (القوة) وبما أن أفراد البشر لا يتساوون في مدى امتلاكهم القوة وتمكنهم من استخدامها لتحقيق أغراضهم فإن معنى هذا أن عدم المساواة هي القاعدة الطبيعية وهذا بدوره يعني أن أفراد البشر بالطبيعة ليسوا سواسية إن القوي ينال أكثر من الضعيف أما فكرة المساواة فإن العرف هو الذي بوجدها لذلك فالطبيعة والقانون حسبه متعارضان.

أورد لنا أفلاطون مجملا لأراء سوفسطائي آخر اسمه "غلوكون" يمكن أن نستخلص من أقواله أول طرح لنظرية "العقد الاجتماعي" حيث يقول " أن ارتكاب الظلم خير بحكم الطبيعة ، أما معاناة الظلم فهو شر غير إن هذا الشر هنا أعظم من الخير وعندما يرتكب الناس الظلم ويقاسون من الظلم وتتوافر لديهم تجربة الحاليين وعجزهم عن تجنب أحدهما وممارسة الوضع الآخر عندئذ يرون أن من الأفضل الإتفاق على أن لا يرتكبوا الظلم أو يعرضوا أنفسهم له ومن هنا تنشأ القوانين والمواثيق المتبادلة.

ويمكن أن نلخص أفكارهم في النقاط التالية:

- عارضوا الآراء الفلسفية التي ترتكز على الاهتمام بالكليات المجردة والتعميمات المطلقة والقضايا والمسلمات الثابتة.
- انتقدوا التفسيرات الأسطورية الشائعة وسخروا منها.
- نادوا بضرورة الاهتمام بالفرد والمواطن وحقوقه فيجب أن يكون المواطن محور اهتمام الدولة وهاجموا القول بأن الفرد مجرد تابع للجماعة.
- ناقشوا القيم الاجتماعية المجردة فالعدل في نظرهم ليس فكرة مجردة يمكن الوصول إليها بالتفكير المنطقي ولكنه لابد أن يتحقق في الواقع، فهو نتيجة الممارسة الاجتماعية ولكنهم جعلوا الفرد مقياس كل شيء فما يراه عدلا فهو العدل وما يراه حقا فهو الحق، وذلك راجع إلى نبذهم فكرة الحقيقة المطلقة.
- هاجموا بقوة مظاهر عدم المساواة الاجتماعية وأشكال الظلم الاجتماعي التي انتشرت في المجتمع اليوناني منها مهاجمتهم نظام الرق والعبودية وفكرة المواطنة اليونانية التي ترتكز على النظرة العنصرية منها قول أنتيغون في كتابه "عن الحق" بما أن البشر متساوون في صفاهم الجسمانية ويتشابهون في خصائصهم الطبيعية وبناء على ذلك كله لا أساس للتمييز بين الناس حسب قومياتهم وأعراقهم فكل الناس سواسية.
- هاجم السوفسطائيون القانون الأخلاقي والتشريع الديني ونادوا بالقانون الطبيعي الذي يعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية فالسعادة في القانون الطبيعي هي في العدول من اللذة إلى المنفعة[9]، منها قول أنتيغون أن قانون الطبيعة يبيح لكل فرد أن ينشد الحياة والراحة ولكن (القانون الوضعي) الذي هو وليد الرأي والفكر ويطلب منا أن تفعل أشياء غير طبيعية.

ب- الفكر الاجتماعي لدى أفلاطون (427- 347 ق.م)

[9] - الجوهري، ص 46-47.

اتخذ التفكير اليوناني في هذه المرحلة الطابع اليوتوبي المثالي يبدأ هذا التفكير عند سقراط ويبلغ ذروته مع أفلاطون وقد تأثر تفكيره بطبيعة الأزمة الاجتماعية التي كان يعانيها المجتمع الأثيني في ذلك الحين، لذلك انطوى تفكير أفلاطون على تصورات ذهنية وتطلعات مثالية مستوحاة إلى حد كبير من مجتمع اسبرطة وتجسيد كل ذلك في المدينة الفاضلة التي خططها أفلاطون وكأنها تمثل الهروب من الواقع القيمي والأخلاقي في أثينا.

يعتبر أفلاطون أشهر أتباع سقراط وكانت أول مؤلفاته عن المجتمع والدولة ولعل أشهر كتاباته هو كتاب الجمهورية أو المدينة الفاضلة، ترجع جذور المجتمع إلى حاجات البشر المتباينة وما ينشأ عن ذلك من تقسيم للعمل، وتتكون الدولة في رأي أفلاطون من التكامل بين الأشخاص الذين لهم حاجات والأشخاص الذين يشبعون تلك الحاجات، يرى أن تقسيم العمل ضروري لوجود المجتمع.

في كتابه الثاني "Laws" وضع له المثالية الثانية أو أفضل دولة ممكنة في ظل الظروف القائمة وقد سمح بالملكية الخاصة والحياة العائلية، خطط أفلاطون للبناء الاجتماعي الأمثل للمدينة الفاضلة ويرتكز هذا البناء على ثلاث طبقات رئيسية مرتبطة بعضها فوق بعض، لكل طبقة وظائفها الخاصة بها، الطبقة العليا تتكون من الحكام الذين يتولون سياسة أمور الدولة العليا وفضيلتها الحكمة، ويليها طبقة الجند التي تتولى مهمة الدفاع عن المجتمع فضيلتها الشجاعة، ثم تأتي طبقة العمال من الفلاحين والصناع وتعمل هذه الطبقة على توفير حاجات الشعب وفضيلتها الاحتمال والتعفف، اهتم أفلاطون بمسألة السكان ورأى أن يكون عدد السكان على قدر حاجة الدولة ومعنى هذا أنه لا بد من تنظيم الزواج ولا مانع لديه من إعدام من زاد عن الحاجة ولا جريمة لإعدام الطفل المشوه أو ناقص تركيب وينبغي إعدام الأفراد المعتوهين وعديمي النفع فاسدي الأخلاق والمرضى مما لا يرجى شفائهم، كما ينبغي على الدولة تحسين النسل فيوضع أطفال الدولة في مكان مشترك تتولى نساء متخصصات رعايتهم حتى يمكنهم تحطيم الإطار العائلي.

ت- **الفكر الاجتماعي لدى أرسطو (384- 322 ق.م):**

تلميذ أفلاطون ومعارضه من أشهر شخصيات التاريخ، أشار إلى أنه من أجل استمرار العنصر البشري يجب أن يتحد الجنسان ثم يأتي بعد ذلك العلقة الضرورية بين السيد والعبد "هي ضرورية لبقاء كل منهما".

تصور أرسطو لطبيعة علاقات الأسرة مسألة جديرة بالتأمل وقد وصف أرسطو أسرة قائمة على زواج الرجل الواحد من امرأة واحدة حيث يبدو الأب هو الحاكم المطلق وحيث يعاقب الزاني بالحرمان من حقوق المواطنة، فضلا عن ذلك ينبغي ألا تشارك النساء في نفس مهن الرجال لأن مكان المرأة في البيت تدير الشؤون المنزلية، وكان أرسطو من أشد المؤمنين بالحق الطبيعي للعبودية فالأشخاص الموهوبون بالمعرفة والفراسة جعلتهم الطبيعة حكاما وهؤلاء الذين لا يملكون سوى القوة الجسدية مع قليل من التفكير عليهم القيام بالخدمات.

يعتبر أرسطو أن الإنسان كائن اجتماعي بالطبيعة. وإذا كان المجتمع ضروريا للتطور الكامل للإنسان فهو من الناحية المنطقية سابق على الفرد.

- الدولة هي الإطار السياسي للمدينة وهي تنظم حياة المواطنين تبعا للقانون وجوهر القانون هي العدالة التي لا تتحقق إلا من خلال تطبيق القانون الأخلاقي الذي يرتكز حول الفضيلة والمساواة الاجتماعية.
- التأكيد على دينامية المجتمع واعتبار التغير شرطا أساسيا لحياة المجتمعات الإنسانية فهو يرفض فكرة الثبات المطلق ويأخذ بفكرة النسبية الزمانية والمكانية، فليس هناك نظام اجتماعي مثالي يمكن تطبيقه على كل الشعوب.

- الاهتمام بدراسة البناء الاجتماعي من الناحية المورفولوجية ومن الناحية الوظيفية ويتألف البناء الاجتماعي من ست طبقات ولكل منها واجباته ووظيفتها الاجتماعية.
- إبراز أهمية التوازن وكذلك التغير الديمغرافي، فيرى أرسطو أن البناء الاجتماعي يظل متوازنا بحكم التساند الطبقي، ولكن هذا التوازن قد يختل أو يتحطم، لذلك يجب أن يكون عدد السكان متوازنا يضمن المواطنون الرخاء المادي ويضمن للحكام التقدم الفكري لتكون الحكومة الصالحة.

ثانيا: الفكر الاجتماعي الأوربي في العصور الوسطى:

كانت الفلسفة المسيحية في طور النشأة والتكوين في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية في طريقها للانهيار والتدهور وقد كان أهم ما كرسته المسيحية وأولته غايتها الفائقة فكرة المساواة بين الأفراد، فلقد هاجموا الرق واعتبروه يتعارض مع القوانين الإلهية.

أ- الفكر الاجتماعي عند القديس أوغسطين (354- 430م)

سعى أوغسطين خلال القرن الخامس ميلادي إلى صياغة الفكر المسيحي وتنظيره متأثرا بالتراث الفلسفي اليوناني خاصة فلسفة أفلاطون، فهو يمثل الفلسفة المسيحية في قرونها الأولى وقد لعبت التحليلات التي وردت في مؤلفه "مدينة الله" دورا كبيرا في الفكر الاجتماعي حيث عالج الحق الطبيعي والحق الإلهي وشرعية السلطة السياسية والسلطة الدينية والنزعة الإنسانية ودور العقيدة الدينية في إعلاء العلاقات البشرية وفقا للمبادئ الأخلاقية السامية كما ناقش واجب السلطة السياسية في ضرورة العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية.

ومن مقومات المجتمع في نظره اشتراك الأفراد في الفكر والعاطفة مما يقيم بينهم نوعا من الوحدة المعنوية، ويرى أن كل فرد ينتمي إلى عالمين العالم الأرضي العلماني والعالم السماوي الإلهي وتتجاذبه قوانين هذين العالمين وتشريعاتهما، العالم الأرضي يجذبه لمغريات تجربة لخطيئة الإثم والسماوي يجذبه إلى تعاليم السماء المقدسة والجهاد في سبيل تحقيق السعادة عن طريق العدالة الإلهية، وقد جعل هذا التمييز أساسا لفهم التاريخ البشري الذي يخضع باستمرار لاحتكاك هاتين الجماعتين فالأولى هي مدينة الشيطان الذي يتميزون بالأنانية ويميلون إلى إيثار أنفسهم أما مدينة الله فإن أخلاقهم تكون أخلاق سكان العالم السماوي وأن هاتين المدينتين ستخلطان وتتداخلان طوال الحياة ولا تنفصلان إلى يوم الحساب.

والحياة الاجتماعية تعتمد في بدايتها على مبادئ القانون الطبيعي وحينما يقع الناس في الخطيئة يصبح القانون الوضعي ضرورة اجتماعية، وما يتضمنه من إجراءات جزائية وعن هذه الضرورة استمدت السلطة الأرضية مبررات وجودها واستطاعت أن تفرض نظم الرق والملكية الفردية وغيرهما من الأمور التي تعتبر عقابا من الله على خطيئة البشر، كما أنها من مستلزمات سلطة الدولة وركيزة للتنظيم الاجتماعي.

وعند تعرضه للملكية الفردية ارجع حق الملكية للذات الإلهية فالله هو المالك الحقيقي وهو الذي أسبغ هذا الحق على الجنس البشري فالملكية ليست حقا طبيعيا أو قانونيا ولكنها ترجع لمصدر مقدس ومع ذلك فإن حماية الملكية من أهم واجبات الدولة، وينظر أوغسطين للرق نظرة مزدوجة فهو من وجهة نظر إنسانية هو نظام يحق إلغاؤه ومن وجهة نظر كونه نتيجة عقابية على خطايا البشر فهو نظام طبيعي يتماشى مع العدل الإلهي، ولما كانت الخطيئة لا تزال باقية فسوف تبقى الكثير من الآلام والآفات التي تعتبر الرق أحد مظاهرها الاجتماعية وزوال نظام الرق رهين بزوال التسلط والظلم

والخطيئة وزوال هذه الظواهر الأخيرة لا يتم إلا حينما يتولى الله نفسه السلطة المباشرة الأمر الذي لا يمكن أن يقام في الحياة الأرضية بل حينما يرث الله الأرض ومن عليها وينتقل البشر إلى المدينة أو العالم السماوي.

ومع بداية القرن الثالث عشر بدأ الفكر الاجتماعي يتضح مع أعمال ألبرتوس ماجنوس الذي حاول التعبير عن النظرة المسيحية تعبيرا فلسفيا فأستعان بمنطق أرسطو وفلسفته.

ب- توماس الإكويني:

يعد الإكويني أهم وأعظم لاهوتي وفيلسوف في العسر الوسيط في أوربا دعم الكنيسة بشكل كبير، كانت فلسفته تسعى إلى الوصول توحيد عام ونظام شامل مفتاحه الوفاق والتنسيق، الذي كان كتابه "نظام الحكم الأساسي" أعظم المؤلفات التي ظهرت خلال العصور الوسطى في الفكر الاجتماعي والسياسي، أشار توماس الإكويني أن المجتمع المدني يتضمن ثلاث أفكار رئيسية هي:

- الأول: أن الإنسان اجتماعي بطبعه.
- الثانية يضم المجتمع مجموعة من الأغراض والمصالح ولا يستطيع الإنسان تحقيق مصالحه بصورة أفضل إلا من خلال العلاقات الاجتماعية.
- الثالثة أن القوة العليا ضرورة لتوجيه المجتمع من أجل المصلحة المشتركة، ومساعدة الحاكم على استخدام قدراته الفائقة من أجل منفعة المجتمع.

وقد ذهب إلى أن السيادة السياسية هي سلطة من القوانين وهذه وظيفة كل أفراد المجتمع السياسي أو من يمثلونهم وقد أقر بمشروعية الملكية الخاصة إلا إذا ساد الفقر وعم الحرمان فتصبح الملكية عامة بين الجميع وقد اعترف بظاهرة الرق وسلم بها ورأى أنها تحقق دورا اجتماعيا أساسيا وهو عقاب البشر على خطاياهم، كما يضيف أن تحقيق الخير يتطلب وجود سلطة حاكمة تسير شؤونه واعتقد أن الحكم في عنق الجماعة الذي يسعى إلى الخير يعلو المجتمع الدنيوي لكن تحقيق ذلك يفوق طاقة البشر العاديين لذلك يجب أن يتولى هذه المهمة القساوسة لا الحكام.